موسوعة التاريخ المصور

سقوط دولة الفراعنة

إعداد: هشام الجبالي



مرحبا باصدقائى فى كل بقعة من أرض مصر.

أسمى **«نيل»** وُجدت منذ أن شق النهر مجراه فى أرضنا فجلب لها الخصب والنماء، عشت كل هذه القرون بينكم أصاحب أجدادكم القدماء فى رحلات البناء الطويلة، وأرافق أباءكم فى مسيرة العمل من أجل رقى مصر وتقدمها، أشاركهم أحزانهم وأأسى لهزائمهم، أسعد بإنجازاتهم وأشيد بانتصاراتهم، أعشق كل ما هو مصرى فأطوف بأرجاء البلاد شرقا وغربا، شمالا وجنوبا، أبحث عن كل جديد، عن كل بناء وتقدم، أقضى النهار أحث أبناءها على بذل المزيد من الجهد، وأمسى لأحلم لها بغد أكثر إشراقا ومستقبلا يملأه الرقى والتحضر، أعتدت أن أصاحب الشيخ كثير النشاط والحركة **«تاريخ»** كلما جاء لزيارة أرضنا، أقص عليه أخبارها وأقدم له المساعدة ليسجل لها فى أوراقه جهد أبنائها وشموخ حضارتها، لهذا ستجدونى معكم عبر حكايات **«تاريخ»** وحوادث مصر وأخبارها.



موسوعة تاريخ مصر

المحرر : هشام الجبالى

الرسوم الداخلية : علاء حجازى

هانى طه - إيهاب وصفى

المراجعة اللغوية : شوقى هيكل

الجمع التصويرى : المكتب العربى للمعارف

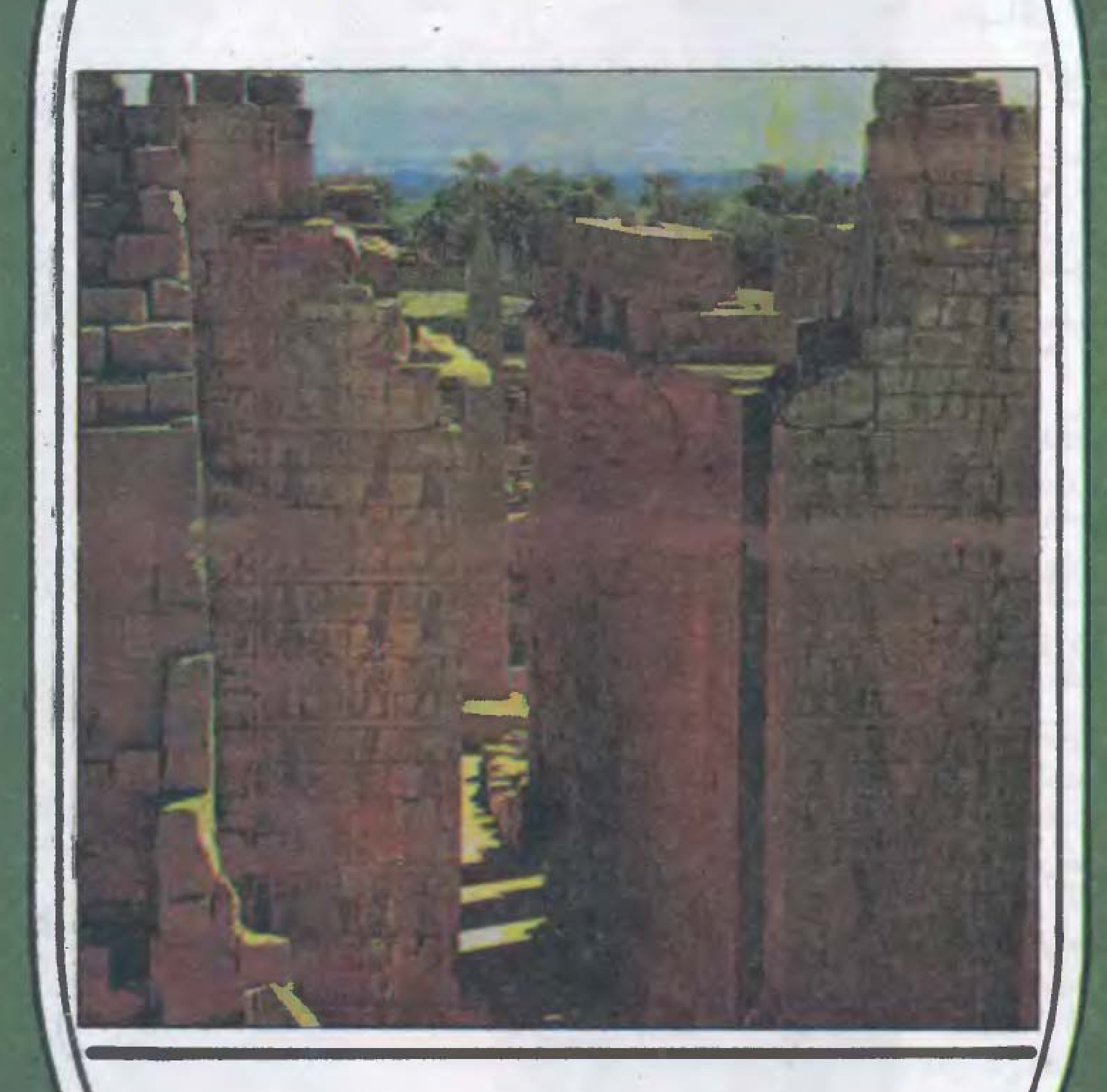
الإخراج : المكتب العربى للمعارف

رقم الإيداع : ١٩٩٤/٥٤٤١

الترقيم الدولى : I.S.B.N:977-276-018-5

موسوعة تاريخ مصر

سقوط دولة الفراعنة



إعداد: هشام الجبالي

ها نحن نلتقي من جديدٍ لنواصلَ الحديثَ عن أخبارِ مصرَ، ونصلَ ما انقطعَ من حكاياتِ فراعنةِ النهرِ والأهراماتِ والحضارةِ.

فقد تركتُ بلادَكُمْ عام ١١٨٧ قبلَ الميلادِ أُسْرِعُ خلفَ هذه التغيراتِ التى راحت تجتاحُ أممَ وممالكَ الأرضِ من حولى، شعوبٌ تهجرُ أوطانَهَا باحثةً عن وطنٍ جديدٍ، وأخرى تتساقطُ أمامَ زحفِ المهاجرين، هجراتٌ هنا وحروبٌ هناك وكأنَّ العالمَ يُعيدُ تشكيلَ نفسِهِ.

ظللتُ أتنقَّلُ بين أممِ الأرضِ وأوطانِهَا، أفتِّشُ وأستفسرُ عن هذه الشعوبِ المهاجرةِ التى أطلقَ عليها المصريون اسمَ شعوبِ البحرِ، حتى



رمز الحياة عند الفراعنة



علمتُ كيف خرجَتْ من ديارِهَا فى شمالِ شرقىِ القارةِ الأوروبيةِ، موجاتٍ متتابعةً تبحثُ عن ظروفٍ معيشيةٍ أفضلَ، وكيف اتجهَتْ بعضُ هذه الموجاتِ إلى غربىِّ آسيا لتصطدمَ بمملكةِ الحيثيين، وتشتعلُ بينهما المعاركُ على حدودِ إمبراطوريةِ الفراعنةِ، بينما اتجه بعضُهَا الآخرُ إلى سواحلِ القارةِ الإفريقيةِ ليتحالفَ مع قبائلِ الليبيين على غزوِ دلتا مصرَ، فى الوقتِ الذى كان فيه رمسيسُ الثانى قد تجاوزَ الثمانين من عمرِهِ، ولم يعد يهتم بغيرِ استكمالِ أعمالِ البناءِ والتشييدِ.

وهأنَذَا أعودُ ثانيةً إلى بلادِكُمْ عامَ ٩٩٣ قبلَ الميلادِ، أتجوَّلُ بين مدنِ الوادى ومقاطعاتِهِ، باحثًا عن «نيلٍ» لأعلمَ منه جميعَ ماجرى طَوَالَ مايقرُبُ من مائتَىْ عامٍ قضيتُهَا بعيدًا عن مصرَ.

وفى طيبةَ علمتُ بوجودِ «نيلٍ» فى إحدى دُورِ التحنيطِ المنتشرةِ بها، فأسرعتُ من فورى إلى حيثُ يوجدُ، ولكننى ما كدتُ أجتازُ أسوارَ دارِ التحنيطِ هذه حتى أحاطَ بى الجندُ يمطروننى بسيلٍ من الأسئلةِ

والاستفسارات: من أين قدِمْتَ إلينا؟ وكيف جئتَ إلى هنا؟ وما الذى جعلك تحاولُ التسللَ إلى الداخلِ؟ ولم يُنْقِذْنِي من بين أيدى الجندِ واستفساراتِهِمْ سوى قدومِ «نيلٍ» الذى اصطحبنى إلى إحدى الحجراتِ الجانبيةِ مرحِّبًا، بينما رحتُ أتوجَّهُ إليه متسائلاً: ما الذى يدورُ فى هذا المكانِ يا«نيلُ»؟ ولماذا يمنعُنِي هؤلاءِ الجندُ من الدخولِ؟

فقال: إنها دارُ التحنيطِ المَلَكِيَّةِ يا أبيتى.

فقلتُ له: وماذا تُرَاكَ تفعل داخلَ هذه الدارِ؟

فقال: كنتُ أتابعُ إجراءاتِ تحنيطِ جَسَدِ فرْعَوْنِنَا «بِينُوزَمْ» الأولِ.

فقلتُ له: وهل بدأ العملُ فى تحنيطِ جُثْمَانِ ذلك الفرعونِ؟

فقال: هو لم يَبْدَأْ بَعْدُ، فما يزالُ المحنِّطُونَ يُعِدُّونَ أدواتِهِمْ للقيامِ بذلك العملِ.

فقلتُ له: حسنًا، يمكِنُكَ إِذَنْ أن تقصَّ علىَّ جميعَ ماحدثَ على أرضِ مصرَ طَوَالَ الأعوامِ السابقةِ حتى يفرغَ المحنِّطُونَ من الإعدادِ لعملِهِمْ.

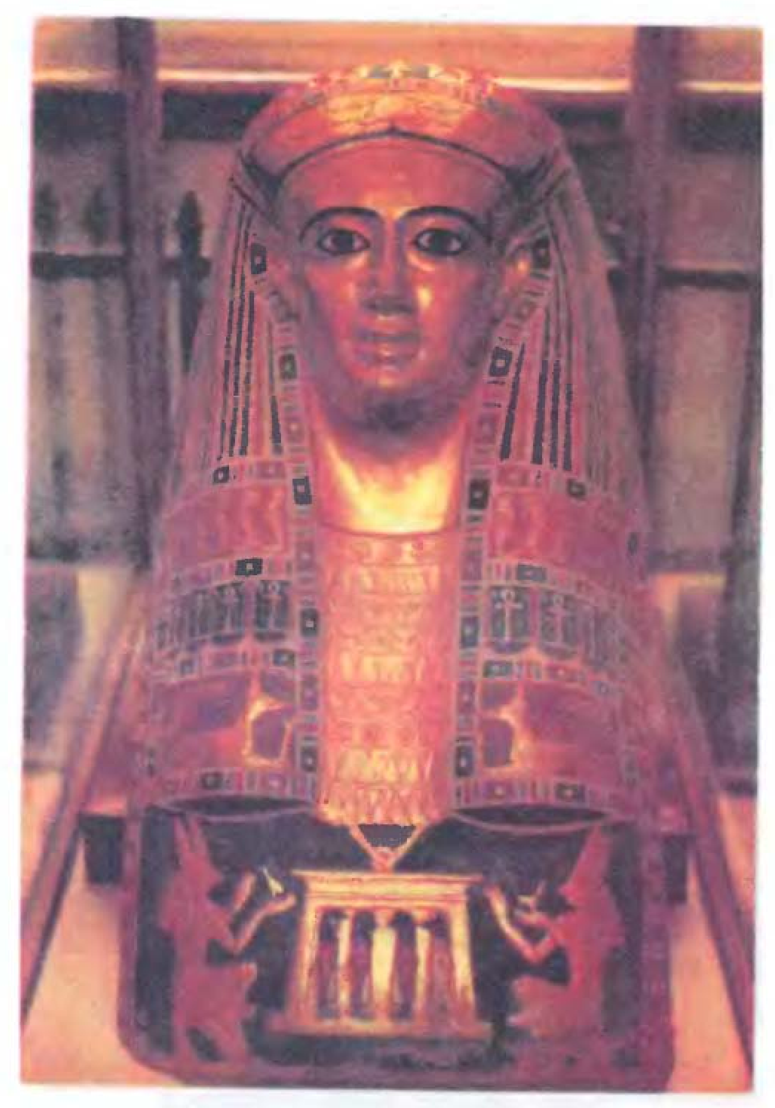
فقال: لقد شاهدتَ معنا قبلَ رحيلِكَ فى المرةِ



السابقةِ استقبالَ البلادِ لجيوشِهَا العائدةِ من غربى الدلتا، بعدما استطاعَ رمسيسُ الثالثُ تحقيقَ الانتصارِ على تحالفِ شعوبِ البحرِ وقبائلِ الليبيين فى عامِ حُكْمِهِ الخامسِ.

فقلتُ له: أجَلْ يا «نيلُ»، فما الذى حدثَ بعد ذلك؟

فقال: لم يَهْنَأْ رمسيسُ الثالثُ بذلك الانتصارِ طويلاً، إذ سرعانَ ما أخذ يُعِدُّ جيوشَهُ للقتالِ بعدما جاءت الأخبارُ تُنبِئُ بسقوطِ مملكة الحيثيين أمامَ زحفِ شعوبِ البحرِ الذين راحوا يتدفّقُونَ فى مقاطعاتِ الإمبراطوريةِ المصريةِ فى جنوبِ سوريا ولبنانَ وفلسطينَ يدمِّرُونَ كلَّ مايقفُ فى طريقِهِمْ إلى أرضِ مصرَ، وبينما كانت جيوشُ الغزاةِ تقتلُ



غطاء إحدى المومياوات الفرعونية

الأرضَ سيراً صوب الدلتا، كانت أساطِيلُهُمْ تسابِقُ أمواجَ البحرِ المتوسطِ إلى الشواطىءِ المصريةِ.

فقلتُ له: وهل نجحَ رمسيسُ الثالثُ فى صدِّ هجماتِ شعوبِ البحرِ؟

فقال: خرجَ رمسيسُ الثالثُ على رأسِ جيوشِ الإمبراطوريةِ فى عامِ حكْمِهِ الثامنِ، فقابلَ جيوشَ الغُزَاةِ البريَّةَ على حدودِ مصرَ الشرقيةِ عندَ مدينةِ رَفَحٍ، وهناك دارت المعاركُ التى كان النصرُ فيها حليفًا للمصريين الذين استطاعوا أيضا القضاءَ على أساطيلِ هؤلاءِ المهاجرين عند مصبٍّ النهرِ الغربىِّ.

فقلتُ له: لقد نجحَ فرعونُكُمْ إذَنْ فى الوقوفِ بوجهِ هؤلاءِ الغزاة الجُدُدِ الذين لا أظنُّهُمْ يقلُّونَ خطرًا عن الهكْسُوسِ فى الماضى، فلو قُدِّرَ لشعوبِ البحرِ الانتصارُ على جيوشِ رمسيسَ الثالثِ لسقطَتْ دولةُ الفراعنةِ، كما سقطَتْ مملكةُ الحيثيين على



جانب من معبد الكرنك



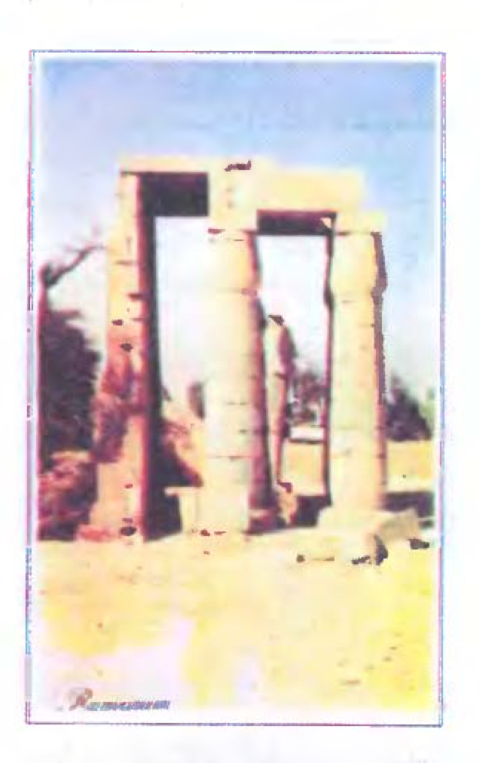
معبد هابو

حدودِكُمُ الشرقيةِ.

فقال: حقاً، لقد كان انتصارُ رمسيسَ الثالثِ على شعوبِ البحرِ انتصاراً عظيماً، غيرَ أنه لم يَكُنْ خاتمةَ انتصاراتِهِ، إذ إنه في عامِ حكمِهِ الثاني عشرَ قادَ جيوشَهُ إلى الغربِ ليواجِهَ خطرَ الليبيين الذين راحُوا يهدِّدُونَ حدودَ الدلتا من جديدٍ، بعدما عادوا يتحالفُونَ مع قبائلِ غربي الساحلِ الإفريقي عازمين على مهاجمةِ مقاطعاتِ مصرَ الشماليةِ، لكن رمسيسَ الثالثَ شتَّتَ جمعَهُمْ وأوقعَ بهم هزيمةً ساحقةً قبلَ أن يعودَ إلى عاصمةِ مُلْكِهِ برمسيسَ آمِناً على حدودِ إمبراطوريَّتِهِ، ليحقَّ له أن يقضيَ ما تبقَّى من أعوامِ حكْمِهِ البالغِ اثنين وثلاثين عاماً في هدوءٍ وسكينةٍ، يحاولُ إزالةَ بعضِ ما خَلَّفَتْهُ الحروبُ الطويلةُ من تعطيلٍ للحياةِ الطبيعيَّةِ على وجهِ الإمبراطوريةِ المصريةِ.

فقلتُ له: لابدَّ وأنه قد شيَّدَ الكثيرَ من الأبنيةِ والمنشآتِ كسائرِ فراعنةِ مصرَ العظامِ؟

فقال: كعادةِ الفراعنةِ العظامِ أنشأَ رمسيسُ الثالثُ معبدَهُ (١) الجنائزيَّ في صحراءِ طيبةَ، بجانبِ إضافتِهِ لبعضِ الأبنيةِ في معبدَيْ أمنْحُوتِبْ الثالثِ والكرنكِ، وإقامتِهِ للكثيرِ من المنشآتِ في مَنْفٍ وعَيْنِ شمسٍ وبَرْ رَمْسِيسَ



بقايا معبد الرمسيوم

وأبيدُوسَ والنوبةِ، لكنه مع كلِّ ذلك لم يستطِعْ أن يرتقيَ بأبنيتِهِ ومنشآتِهِ إلى مكانةِ رمسيسَ الثانى وأمنحوتب الثالثِ وأمنمحاتِ الثالثِ أعظمِ البنَّائين الفراعنةِ.

فقلتُ له: لكنه دون شكٍّ سيبقَى فى ذاكرةِ مصرَ كأحدِ محاربِيهَا العظامِ، تذكُرُهُ بالثناءِ والعرفانِ متى كانت تدبُّ على أرضِها صُوَرُ الحياةِ ولن تنسى له أبدًا دفاعَهُ عن أمنِهَا وسلامتِهَا ضدَّ هجماتِ الليبيين وشعوبِ البحرِ وقبائلِ غربِ أفريقيا.

فقال: حقا يا أبتى، لقد تركَ رمسيسُ الثالثُ لخلفائِهِ على عرشِ الأسرةِ العشرين إمبراطوريةً آمنةً تتطلَّعُ إلى مَنْ ينهضُ بها ويُحْسِنُ تنظيمَ شئونِهَا واستغلالِ مواردِهَا، لتستعيدَ سابقَ بَهَائِهَا الذى كانت تتمتَّعُ به فى عهدِ الأسرةِ الثامنةَ عشرةَ.

---

(١) معبد هابو.

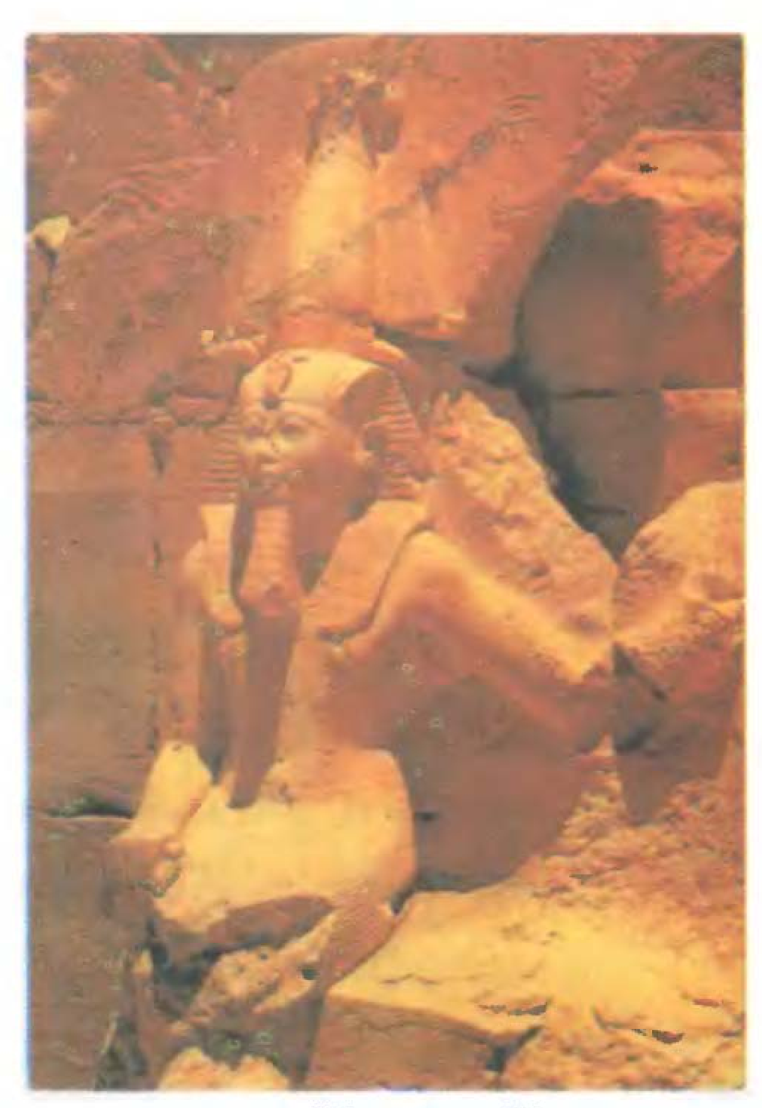
فقلتُ له: وهل كان خلفاءُ رمسيسَ الثالثِ على عرشِ الأسرة العشرين فراعنةً أقوياءَ مهرةً قادرين على استعادةِ أمجادِ الإمبراطوريةِ وعزّتِهَا؟

فقال: ما أعظمَ الفرقَ بين فراعنةِ الأسرةِ الثامنةَ عشرةَ وخلفاءِ رمسيسَ الثالثِ على عرشِ الأسرةِ العشرين! لقد تولّى الحكمَ بعدَ رمسيسَ الثالثِ ثمانيةُ فراعنةٍ من أسرتِهِ تسمَّوْا باسمِ رمسيسَ، لم يَتَّصِفْ واحدٌ منهم بمهارةٍ وقوةِ الفراعنةِ العظامِ، فنراهم يتتابعون على حكمِ مصرَ طوالَ مايقربُ من الثمانين عامًا، دون أن يخلِّفُوا وَراءَهُمْ مايَشْهَدُ لهم بشيءٍ من حسنِ العملِ أو مهارةِ الإدارةِ.

فقلتُ له: وكيفَ كانَ ذلك؟

فقال: كان رمسيسُ الثالثُ قد أعدَّ ابنَهُ رمسيسَ الرابعَ لِيَخْلُفَهُ على العرشِ متابعًا مسيرةَ التنظيمِ والإصلاحِ، ولكنَّ حكمَ رمسيسَ الرابعِ القصيرَ الذى لم يتجاوزِ الستةَ أعوامٍ حملَ فى نهايَتِهِ مظاهرَ الضعفِ والفوضَى إلى الحدِّ الذى أدَّى بعمالِ الفرعونِ إلى الإضرابِ عن أعمالِهِمْ احتجاجًا على سُوءِ مايلاقونه من معاملةٍ، وجلسَ من بعدِهِ رمسيسُ الخامسُ على العرشِ لأربعةَ عشرَ عامًا، ثم كان صراعٌ بين الرعامسةِ أولادِ وأحفادِ رمسيسَ الثالثِ على عرشِ الأسرةِ العشرين، فتولَّى الحكمَ رمسيسُ السادسُ والسابعُ والثامنُ تباعًا فى مُدَّةٍ لاتتجاوزُ الثلاثةَ عشرَ عامًا بدأ فيها نفوذُ مصرَ وسيطرتُهَا على أقاليمِ إمبراطوريَّتِهَا تأخذُ فى الوَهَنِ والانحسارِ نتيجةً لضعفِ الفراعنةِ وإهمالِهِمْ لأعمالِ التنظيمِ والإدارةِ، ومن بعدِ رمسيسَ الثامنِ تولَّى الفرعونُ رمسيسُ التاسعُ الحكمَ طيلةَ سبعةٍ وعشرين عامًا، وعلى الرغمِ من طولِ فترةِ حكْمِهِ لم يستَطِعْ إعادةَ

شيءٍ من النظامِ والاستقرارِ لبلادِهِ التي صارت تُعَاني من الضعفِ والتدهورِ وانتشارِ أعمالِ النهبِ التي وصلت إلى حدِّ العَبَثِ بموميـاواتِ الفراعنةِ العظامِ في مقابرِهِمْ بصحراءِ طيبةَ.


الملك رمسيس الثالث

ـ فقلتُ له: ولكن كيف يعبثُ المصريون بمقابرِ فراعنتِهِمْ وهم الذين ارتفعُوا بمكانةِ هؤلاءِ الفراعنةِ إلى حدِّ التقديسِ في كثيرٍ من الأحيانِ؟ ثم أين ذلك الحرصُ وتلك الرعايةُ التي تميِّزُ المصريين ببذلِهَا لمقابرِ مَوْتَاهُمْ منذُ زمنٍ بعيدٍ؟!

فقال: لقد أدَّى سوءُ التنظيمِ إلى تدهورِ أعمالِ التجارةِ والزراعةِ والصناعاتِ على طولِ الدلتا والوادي ممَّا وَصَلَ بكثيرٍ من المصريين إلى أشدِّ حالاتِ الفقرِ والحاجةِ، فانتشرَ بينهم اللصوصُ الذين رَأَوْا فيما تجمَّعَ بمقابرِ الفراعنةِ من ذهبٍ وأحجارٍ

كريمةٍ.. مورداً زاخراً يقيهم بُؤْسَ الفقرِ والحاجةِ، وفى أزمانِ الشدةِ والتدهورِ كثيرًا ما يتخلّى البعضُ عن عقائدِهِمْ لتنتشرَ أعمالُ السلبِ والنهبِ دونَ خوفٍ أو وَجَلٍ.

فقلتُ له: أعلمُ أن بلادكُمْ قد فَقَدَتْ الكثيرَ من مواردِهَا وثرواتِهَا نتيجةً لبَذْخِ رمسيسِ الثانى وشَغَفِهِ البالغِ بأعمالِ البناءِ والتشييدِ، لكنَّ فتوحاتِ مرِنْبِتَاحْ، ورمسيسِ الثالثِ، من بعدِهِ لابدَّ وأن تكونَ قد ساقَتْ إليكم الكثيرَ من الغنائمِ والثرواتِ.

فقال: كانت الغزواتُ التى قامَ بها مرِنْبِتَاحْ ورمسيسُ الثالثُ من بَعْدِهِ سببًا فى تدفُّقِ الغنائمِ على البلادِ، غيرَ أنَّ هذه الغنائمَ قد أَخَذَتْ طريقَهَا إلى خزائنِ معابدِ آمونَ منذُ زمنٍ بعيدٍ، ففى الوقتِ الذى كان فيه ملوكُ الرعامسةِ يعانون من تدهورِ الأحوالِ فى الداخل وانحسارِ سيطرتِهِمْ عن أقاليمِ إمبراطوريَّتِهِمْ فى الشمالِ والجنوبِ، كان كهنةُ آمونَ يكدِّسُونَ كُلَّ ماتَقَعُ عليه أيديهم من ثرواتٍ بين جدرانِ معابدِهِمْ يَزِيدُهُمْ ذلك قوةً وسيطرةً، حتى أدَّى بهم تعاظمُ نفوذِهِمْ وثرواتِهِمْ إلى التدخُّلِ المباشرِ فى أمورِ الحكمِ.

فقلتُ له: وكيف كان ذلك التداخلُ؟

فقال: بعد رحيلِ رمسيسَ التاسعِ تولَّى رمسيسُ العاشرُ الحكمَ، فكان عهدُهُ الذى لم يتجاوَزْ الثمانيةَ أعوامٍ ينبىءُ بالنهايةِ الوشيكةِ لحكمِ الرعامسةِ ملوكِ الأسرةِ العشرين، إذ ضاعَتْ فى عَهْدِهِ سيطرةُ الفراعنةِ على إقليمِ النوبةِ، فلم يَتَبَقَّ من إمبراطوريةِ تحتمسَ الثالثِ ورمسيسَ الثانى والثالثِ من بَعْدِهِ سوى نفوذٍ شكلىٍّ على أرضِ فلسطينَ، ومع رحيلِ رمسيسَ العاشرِ وولايةِ رمسيسَ الحادىَ عشرَ كانت أحوالُ البلادِ قد



وَصلَتْ إلـــى أبْعَدِ دَرَجَاتِ التدهورِ والفوضَى، مما شَجَّعَ سِمِنْدِسْ -أحـــدَ حُكَّامِ المقاطعات- على أن يغتصبَ المُلْكَ لنفسِهِ مُعْلِنًا قيامَ أسرةٍ حاكمةٍ جديدةٍ فى مدينةِ تَانِيسَ (١) شرقى الدلتا، وبينما راحَ سمندس يضمُّ إلى مُلْكِهُ مقاطعاتِ الدلتا الواحدةَ بعدَ الأُخْرَى، أسرعَ رمسيسُ الحادىَ عشرَ بالفرارِ صوبَ طيبةَ، محتميًا بسلطانِ حرِيحُورْ كبيرِ كهنةِ آمونَ الذى رأى فيما يحدثُ فُرْصَتَهِ السانحةَ لإبرازِ قُوَّتِهِ ونفوذِه، فأعلنَ نفسَهُ فرعونًا للبلادِ وحاكمًا لمقاطعاتِها الجنوبيةِ، وهكذا تفرَّقَتْ أرضُ مصرَ بين سِمِنْدِسْ مؤسسِ الأسرةِ الواحدةِ والعشرين فى تَانِيسَ وحرِيحُورْ حاكمِ المقاطعاتِ الجنوبيةِ.



مومياء الملك رمسيس الخامس

(١) صان الحجر - بمحافظة الشرقية.

فقلتُ له: وهل تمكَّنَ أحدُ الفريقَيْنِ من إحكامِ سيطرتِهِ على كاملِ أرضِ مصرَ؟

فقال: ظَلَّ حِرِيحُورْ مسيطرًا على مقاطعاتِ الوجهِ القبليِّ طِيلَةَ حياتِهِ، حتى إذا ما رحلَ أسرعَ سِمِنْدِسْ إلى ضَمِّ هذه المقطاعاتِ إلى مُلْكِهِ، تاركًا رئاسةَ كهنةِ آمونَ في طيبةَ لخلفاءِ حِرِيحُورْ الذين ظلوا ينازعون فراعنةَ تَانِيسَ السيطرةَ والسلطةَ، حتى أن حفيدَ حريحُورْ بِينُوزِمْ الأولَ لم يكتفِ بِمَنْصِبِهِ كرئيسٍ للكهنةِ، فراح يمدُّ نفوذَهُ إلى أن تمكَّنَ من الجلوسِ على عرشِ الأسرةِ الواحدةِ والعشرين.



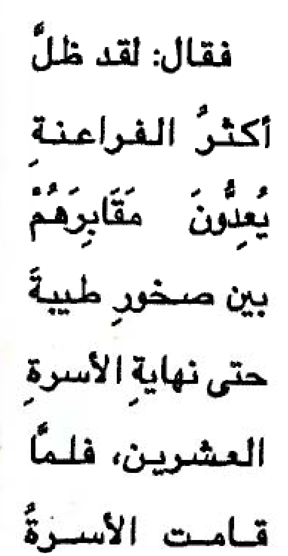
إناء فرعوني من الذهب الخالص

فقلتُ له: أليس بِينُوزِمْ هذا هو من تستعدُّونَ اليومَ لتحنيطِ جُثْمَانِهِ؟

فقال: بَلَى، فقد تُوُفِّيَ بالأمسِ، بعدما جلسَ على العرشِ كفرعونٍ للبلادِ مايقرُبُ من اثنى عَشَرَ عامًا، وسنقومُ بعد إتمامِ عملياتِ التحنيطِ بدفنِ جُثْمَانِهِ في إحدَى مقابرِ طيبةَ.

فقلتُ له: وهل مايزالُ فراعنةُ مصرَ يحفُرُونَ مَقَابِرَهُمْ في صخورِ طيبةَ، على الرغمِ من انتشارِ أعمالِ النهبِ





فيها؟

فقال: لقد ظلَّ أكثرُ الفراعنةِ يُعِدُّونَ مَقَابِرَهُمْ بين صخورِ طيبةَ حتى نهايةِ الأسرةِ العشرين، فلمَّا قامت الأسرةُ الواحدةُ والعشرون فى تانيسَ راح فَرَاعِنَتُهَا يُقِيمُونَ مَقَابِرَهُمْ فى عاصمةِ مُلْكِهِمْ، بينما ظلَّ كبارُ الكهنةِ يُدْفَنُونَ فى صحراءِ طيبةَ مع ازديادِ حِرْصِهِمْ على البعدِ بِمَقَابِرِهِمْ عن أيْدِى اللصوصِ بعدما بذلُوا جهوداً كبيرةً فى إصلاحِ مقابرِ ومومياتِ الفراعنةِ السابقين.

فقلتُ له: أىَّ إصلاحاتٍ تَعْنِى؟

فقال: أدَّتْ محاولاتُ نهبِ المقابرِ إلى تمزيقِ بعضِ مومياواتِ الفراعنةِ، بعدمَا حاولَ اللصوصُ نزعَ ماعليها من ذهبٍ وأحجارٍ كريمةٍ، فلما رأي



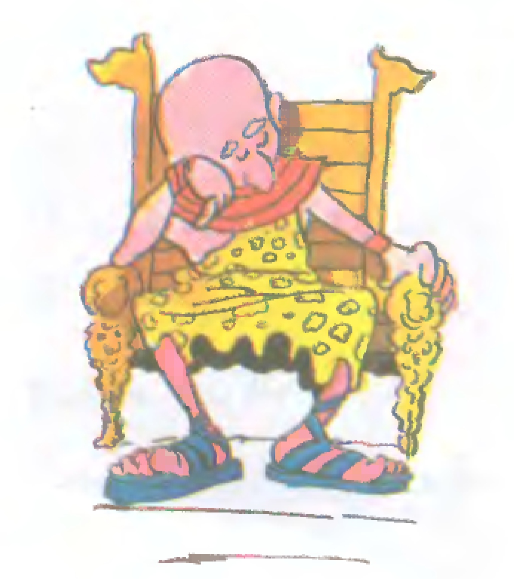
كهنةُ طيبةَ ماوقعَ بمومياواتِ أسلافِهِمْ العظامِ، أسرعُوا إلى إصلاحِهَا وإعادةِ تكفينِهَا، وقد كان بينُوزِمْ الأولُ من أكثرِ هؤلاءِ الكهنةِ اهتمامًا بمومياواتِ الفراعنةِ السابقين، حيثُ قامَ بإصلاحِ الكثيرِ من هذه المومياواتِ مثل مومياءِ تحتمسَ الثانى ومومياءِ أمنْحُوتِبْ الثالثِ وهو لايزالُ كبيرًا لكهنةِ آمونَ، فلَمَّا صار فرْعَوْنًا للبلادِ ازداد اهتمامُهُ بذلك العملِ حتى كانت خاتمةُ إنجازَاتِهِ هى إصلاحَ مومياواتِ كُلٍّ من رمسيسَ الأولِ وسيتى الأولِ ورمسيسَ الثانى، وعلى الرغمِ من إسهامِ كَهَنَةِ آمُونَ بإصرارِهِمْ على مَدِّ نفوذِهِمْ وتأكيد سيطرتِهِمْ فى إضعافِ حكومةِ الفراعنةِ والسيرِ بالبلادِ عِدَّةَ خُطُواتٍ جديدةٍ صَوْبَ التدهورِ والفوضَى، يَبْقَى اهتمامُهُمْ بإصلاحِ مومياواتِ الفراعنةِ عَمَلاً جليلاً صَانُوا به أجسادَ أعظمِ حُكَّامِ مصرَ وساهَمُوا من خِلاَلِهِ فى تطوُّرِ ورُقِّىٍّ فنونِ التحنيطِ.

مومياء الملك رمسيس

فقلتُ له: وكيفَ يكونُ إصلاحُ هذه

المومياوات سبباً فى تطور فنون التحنيط يا «نيلُ»؟

فقال: حينما قامَ المحنِّطُونَ بإصلاحِ مومياواتِ الفراعنةِ السابقين وشاهدوا ماقد أصبَحَتْ عليه بعدَ مرورِ عشراتِ الأعوام من تغيرٍ وتشويهٍ عرفوا ما فى عَمَلِهِمْ من خَلَلٍ أدَّى إلى عدمِ احتفاظِ الجسدِ المحنَّطِ بهيئَتِهِ التي كان عليها وقتَ الوفاةِ، ومن هنا كان سَعْيُهُمْ إلى تطويرِ عملِهِمْ والقضاءِ على كُلِّ أوْجُهِ النقصِ فيه لتكونَ محافَظَتُهُمْ على جَسَدِ المُتَوَفَّى بديلاً عن نَحْتِ الكثيرِ من التماثيلِ الحجريةِ كثيرةِ التكاليفِ،



فى وقتٍ نَدَرَتْ فيه المواردُ وتَدَهْوَرَتْ فيه الأحوالُ.

فقلتُ له: وهل نجحَ المحنِّطُونَ فى تحقيقِ ذلك؟

فقال: أجَلْ ، فقد تَمَّ تحنيطُ جَسَدِ حريحُورْ بطريقةٍ مُبْتَكَرَةٍ فَاقَتْ جَميعَ الطرقِ التى كان يعملُ بها المحنطون القدماءُ.

فقلتُ له: وهل سيَتِمُّ تحنيطُ جسدِ بينُوزِمْ بنفسِ الطريقةِ التى حُنِّطَ بها جسدَ حريحُورْ؟

فقالَ: بالطبعِ، ولابدَّ أن المحنطين قد بَدَؤُوا عملَهُمْ بالفعلِ.

فقلتُ له: حسنًا يا «نيلُ»، فأنا منذُ زمنٍ بعيدٍ أتشوَّقُ إلى معرفةِ مايدورُ داخلَ حُجُرَاتِ التحنيطِ، وأرى أن الفرصةَ لمشاهدةِ هذا الفنِّ المصرىِّ الغريبِ قد أُتيحَتْ لى اليومَ.

فقال: لن يُمْكِنَكَ مشاهدةُ شىءٍ يا



مجموعة من أوانى الأحشاء

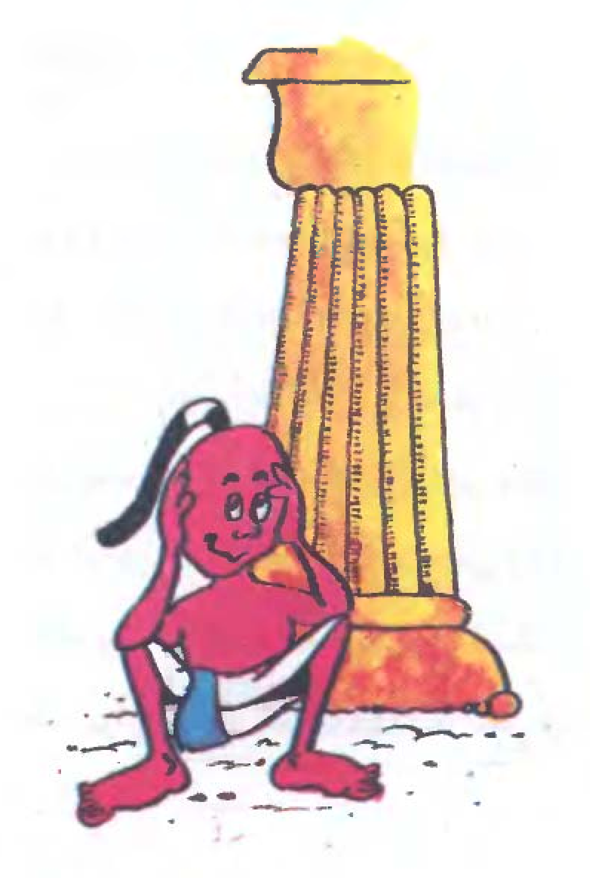
أَبَتِي، إن عملَ المحنطين سرٌّ لايجوزُ الاطلاعُ عليه لغيرِ المحنطين أنفُسِهِمْ أو مَنْ يثقون فيه ثِقَةً عظيمةً.

فقلتُ له: وكيف لايَثِقُونَ فِيَّ وأنا مَنْ سَيُسَجِّلُ لهم تطويرَهُمْ لطرقِ التحنيطِ وإضافةَ الجديدِ لفنونِهِ؟

فصمَتْ قليلاً ثم قالَ: حسنًا يا أَبَتِي، لِنُحَاوِلْ أن نجعلَهُمْ يوافقون على مشاهَدَتِكَ لهم وهم يقومون بأعمالِ التحنيطِ.

ولم يَكُنِ اقناعُ هؤلاء المحنطين بوجودى داخلَ حجراتِهِمْ أمراً يسيراً، فقد ظَلَّ «نيلُ» لساعاتٍ طوالٍ يشرحُ لكبيرِهِمْ أهميةَ مُشَاهَدَتِي لعملِهِمْ قبلَ أن يسمحُوا لى بدخولِ حُجْرَتِهِمْ، ولكن ما أَيْسَرَ المعاناةَ إذا أَدَّتْ بنا إلى رؤيةِ الغريبِ أو اكتشافِ المجهولِ، فهاأنذا أخيراً قد قُدِّرَ لى مراقبةُ أعمالِ

التحنيط، وها هي ذي الحجرةُ الفسيحةُ التي يتجمعُ في وَسَطِهَا عددٌ كبيرٌ من المحنطين يلتفُّونَ حولَ جسدِ الفرعونِ الممدَّدِ على فِرَاشٍ خشبيٍّ خاصٍ تُحيطُ بهم عِدَّةُ أوانٍ مختلفةِ الأحجامِ وكثيرٌ من الأدواتِ المعدنيَّةِ الحادَّةِ وأكوامٌ من لفائفِ الكتانِ جيدةِ الصنعِ، وبينما راح المحنطون يتناولون آلاتِهِمْ الحادةَ استعدادًا لبدءِ عملِهِمْ، وَقَفْتُ على مقربةٍ منهم شغوفًا



بمشاهدةِ مايدورُ أمامي، حتى إذا ما بدأ كبيرُ المحنطين يُعْمِلُ آلَتَهُ في جسد الفرعونِ مُخْرِجًا ما به من أحشاءٍ رخوةٍ، إذا بي أسقطُ من فوري فاقِدًا الوَعْيَ، ولم أُفِقْ إلا وأنا مُمَدَّدٌ على أحدِ الأسِرَّةِ في منزلِ «نيلٍ»، الذي كان يجلسُ بِجَانِبِي، فما كِدْتُ أستردُّ الوَعْيَ حتى رُحْتُ أُحَدِّثُهُ بصوتٍ متقطِّعٍ قائلاً: ما الذي حَدَثَ يا «نيلُ»؟!

فقال: لاشيءَ سوى أنك قد سَقَطْتَ غائبًا عن الوعي بمجردِ أن بدأ المحنطون عملَهُمْ.

فأخذتُ أحدِّثُ نفسي بصوتٍ مسموعٍ قائلاً: ألَنْ يُقَدَّرَ لي يومًا معرفةُ مايدورُ داخلَ حجراتِ المحنطين؟!

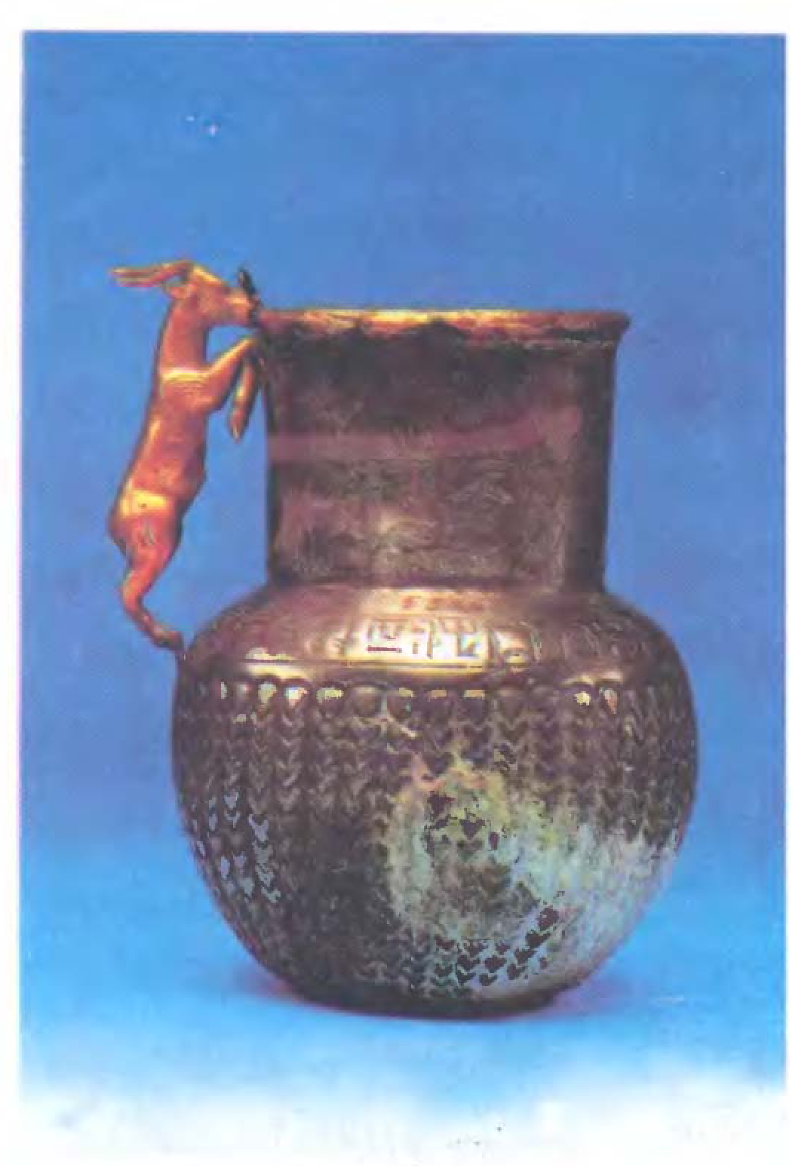
فنهضَ «نيلٌ» قائلاً: إن شئتَ عُدْنَا مَرَّةً أُخْرَى.

فصمتُّ أفكِّرُ قليلاً، ثم أشرتُ له بالجلوسِ قائلاً: لا أعتقدُ أنني قادرٌ

الآنَ على إعادةِ المحاولةِ، ولكن لتقصَّ عليَّ أنت كُلَّ مـــايـــدورُ داخلَ هــــذه الحجراتِ.

فقال: تعلمُ أن الفكرةَ الرئيسيةَ فى عملِ المحنطين هى تخليصُ الجسدِ المتوفَّى من جميعِ مايحويهِ من سوائلَ، ويتمُّ ذلك بعملِ عدةِ فتحاتٍ تستخرجُ من خلالِهَا الأحشاءُ قبلَ أن يُنَظَّفَ الجسدُ جَيِّدًا، ويوضعَ فى الموادُّ الحافظةِ كملحِ الطعامِ والنَّطْرُونِ، ثم يُعَادُ تَنْظيفُهُ وتَعْطيرُهُ ليغَطَّى آخرَ الأمرِ بأربطةِ الكتانِ.

فقلتُ له: أعلمُ أن ذلك هو عملُ المحنطين منذُ زمنٍ بعيدٍ، فما الجديدُ الذى أضفتموهُ إذَنْ إلى فنونِ التحنيطِ؟!



إناء من الفضة ذو مقبض ذهبى

فقال: هناك الجديدُ بالطبعِ، لقد أعاد المحنطون إلى جسدِ المتوفَّى هذه الأحشاءَ التي كانت تُوضَعُ عادةً فى آنيةٍ خاصةٍ بجانبِ المومياءِ، وكذلك عَمِلُوا على إعادةِ لونِ الجلدِ الخارجىِّ

إلى حَالَتِهِ الطبيعيةِ بالتلوينِ بعد تغيرِهِ نتيجةَ استعمالِ الموادِّ الحافظة، كما أضافُوا إلى المومياءِ عَيْنَيْنِ صِنَاعِيَّتَيْنِ، وملَؤُوا جَوْفَهَا من فتحاتِ التحنيطِ بعدَّةِ موادَّ مختلفةٍ، حتى يتفادَوْا انكماشَهَا مع الوقتِ مُتَأثِّرَةً بما فَقَدَتْهُ من سوائلَ.

وهكذا ظَلَلْتُ أتجوَّلُ بين مُدُنِ وقرى الجنوبِ حتى أكملَ المحنطون عَمَلَهُمْ، وبعدما شاهدتُ كيف تَمَّ وضعُ تابوتِ الفرعونِ بِينُوزِمْ الأولِ فى إِحْدَى مقابرِ صحراءِ طيبةَ بجوارِ رمسيسَ الأولِ وسيتِى الأولِ ورمسيسَ الثانى، تركتُ بلادَكُمْ متابعًا أسفارى وتجوُّلِى بين أممِ الأرضِ وشعوبِهَا، أراقبُ هذه الشعوبَ الناهضةَ فى الشرقِ والشمالِ والغربِ، وهى تسعى فى طريقِهَا إلى التقدُّمِ والتحضُّرِ حولَ مصرَ التى تظلُّ رغمَ تدهورِ الأحوالِ على أرضِهَا أعرقَ وأعظمَ أممِ العالمِ جميعًا، وبعدَ طولِ تَرْحَالٍ وعندما حانَ وَقْتُ عودتى إلى بلادِكِمْ بعدَ مُضُىِّ مايزيدُ عن مائتين وستين عامًا، كانت رحلتى التاليةُ عامَ ٧٣٠ قبلَ الميلادِ واحدةً من أقصرِ رحلاتى إلى أرضِ الفراعنة، حيثُ اتجهتُ فَوْرَ قُدُومِى إلى معبدِ الكَرْنَكِ، وهناك كان عُثُورِى على «نيلٍ» جالسًا أسفلَ أحدِ أعمدةِ قاعةِ العُمُدِ الكُبْرَى، واضعًا رَأْسَهُ بين يَدَيْهِ مستغرقًا فى تفكيرٍ عميقٍ، فذكرتنى جِلْسَتُهُ هذه بحالَتِهِ عندَ سقوطِ دولةِ بُنَاةِ الأهراماتِ، وحينما اقتربتُ منه التفتَ ناحيتى دونَ أن يتحدَّثَ إلىَّ أو يُرَحِّبَ بى كعادَتِهِ دائمًا، فجلستُ بِجَانِبِهِ قائلا: ما الذى جرى وجعلَكَ تجلسُ وحيدًا هكذا؟

فقال: لقد جرى الكثيرُ يا أبتى، فما الذى تَوَدُّ مَعْرِفَتَهُ؟

فقلتُ له: لِتَقُصَّ علىَّ جميعَ ما جرى منذُ وفاةِ الفرعونِ بِينُوزِمْ الأولِ إلى

اليوم.

فقال: حكَمَت الأسرةُ الواحدةُ والعشرون مايقربُ من مائةٍ وخمسةٍ وثلاثين عامًا، ظَلَّتْ السُّلْطَةُ تتأرجَحُ خلالَهَا ما بين الفراعنةِ فى تانيسَ وكهنةِ آمونَ فى طيبةَ، لتظهرَ نتائجُ التدهورِ الذى زُرِعَتْ أسبابُهُ فى التربةِ المصريةِ منذُ زمنٍ بعيدٍ.

فقلتُ له: وماذا تقصدُ بهذه الأسبابِ؟

فقال: كان للتدهورِ الذى أصابَ دولةَ الرعامسةِ سَبَبَانِ رئيسيَّانِ، أولهما هو ازديادُ نفوذِ كهنةِ آمونَ إلى الحدِّ الذى جَعَلَهُمْ أندادًا لفراعنةِ البلادِ، فعلى الرغمِ من قدرةِ أوائلِ ملوكِ الرعامسةِ على إدارةِ شئونِ البلادِ وقوةِ دفاعِهِمْ عن أمْنِهَا وسلامَتِهَا، فإنهم قد عَجِزُوا كُلَّ العجزِ عن مقاومةِ ذلك التيارِ الجارفِ الذى ازدادَتْ موجاتُهُ ارتفاعًا يومًا من بعدِ يومٍ، بعدما تخلَّى خلفاءُ إخناتونَ عن إصلاحاتِهِ، وراحُوا يُؤْثِرُونَ السلامةَ بإغداقِهِمْ الكنوزَ والضِّيَاعَ على آمونَ وكهنَتِهِ طلبًا لتأييدِهِم واتِّقَاءً لسلطانِهِمْ.

فقلتُ له: حسنًا يا «نيلُ»، فما السببُ الثانى؟

فقال: هو اعتمادُ ملوكِ الرعامسةِ وفراعنةِ تانيس على الجندِ الأجانبِ من المتطوعين الأسْرَى الذين تكوَّنَ منهم الجزءُ الأكبرُ من جيوشِ مصرَ، فاستطاعُوا أن يسيطِرُوا على الجيشِ، بل ويَصِلُوا إلى شَغْلِ أهمِّ وظائفِ الدولةِ لايعنيهِمْ فى شَغْلِهَا سوى تحقيقِ مطامعِهِمْ وأهدافِهِمْ الشخصيةِ، وهكذا اجتمعَ عبثُ الجنودِ الغرباءِ بشئونِ البلادِ، مع ضعفِ الفراعنةِ وسطوةِ الكهنةِ ليمهِّدُوا الطريقَ لسقوطِ دولةِ الفراعنةِ.

فقلتُ له: وكيف كان ذلك السقوطُ؟

فقال: كَثُرَ عددُ الليبيين فى مصرَ،

بعدما اتخذَ منهم فراعنةُ الأسرةِ الواحدةِ والعشرين حُرَّاسًا للحدودِ والمدنِ وقُوَّادًا ورؤساءَ حربيين، بجانبِ مَنْ جاء منهم إلى أرضِ الدلتا مهاجرًا، فاستقرُّوا بِمُدُنِهَا وامتلكُوا منازِلَهَا وضِيَاعَهَا وعامًا من بعدِ عامٍ كانت لأمراءِ الليبيين الكلمةُ الأولَى فى إدارةِ شئونِ عدَّةِ مقاطعاتٍ مصريةٍ، حتى استطاعَ أحدُ هؤلاءِ الأمراءِ ويُدْعَى شَاشَانْقَ الأولَ أن ينتهزَ فرصةَ ضعفِ آخرِ ملوكِ الأسرةِ الواحدةِ والعشرين، ويُنْهِيَ حُكْمَ فراعنةِ تَانِيسَ مُعْلِنًا قيامَ الأسرةِ الثانيةِ والعشرين.

فقلتُ له: لقد استطاعَ الليبيون إِذَنْ أن يسيطروا على أرضِ مصرَ سِلْمًا، بعدما فَشِلُوا من قَبْلُ فى الاستيلاءِ عليها بحدِّ السيفِ؟

فقال: حَقًّا يا أبتى، فبعدَ مرورِ أقلَّ من مائتين وثلاثين عامًا على هزيمةِ تحالُفِهِمْ مع قبائلِ غربِ أفريقيا أمامَ جيوشِ رمسيسَ الثالثِ استطاعُوا أن يَرِثُوا مُلْكَ الفراعنةِ دونَ مقاومةٍ أو نزاعٍ، وعلى الرغمِ من أنَّ ملوكِ الليبيين قد حَاوَلُوا التَّأَقْلُمَ مع الحياةِ المصريةِ، فحَرَصُوا على اتِّبَاعِ عَادَاتِهِمْ وتلقَّبُوا بألقابِهِمْ وقَدَّسُوا رُمُوزَ مَعَابِدِهِمْ، لم يُضيفُوا لها سوى مَزِيدٍ من التدهورِ والفَوْضَى.

فقلتُ له: وكيف حَدَثَ ذلك؟

فقال: وَرِثَ ملوك الليبيين عن أسلافِهِمْ ملوكِ الأسرةِ الواحدةِ والعشرين تدهورَ شئونِ الزراعةِ والصناعةِ والتجارةِ والفنونِ بجانبِ انقطاعِ المواردِ التى كانت تُجْلَبُ إلى مصرَ من أقاليمِ إمبراطوريَّتِهَا الضائعة، فزادُوا الأمورَ تدهورًا بتنازُعِهِمْ المستمرِّ على مُلْكِ البلادِ وإمارةِ مقاطعاتِهَا، حتى أنهم لم يَجِدُوا أَمَامَهُمْ سبيلاً لإقامةِ مَعَابِدِهِمْ وتَمَاثِيلِهِمْ سوى هَدْمِ معابدِ الفراعنةِ

واستخدامِ أحجارِهَا فى تشييدِ عَمَائِرِهِمْ ومُنْشآتِهِمْ.

فقلتُ له: وهل استمرَّ حكمُ الأسرةِ الثانيةِ والعشرين وقتًا طويلاً؟

فقال : بعد رحيلِ شَاشَانْقَ الأولِ تتابَعَ ملوكُ الليبيين على عرشِ هذه الأسرةِ يسيطِرُونَ على جميعِ مقاطعاتِ البلادِ مُتَّخِذِينَ مدينةَ بَسِتْ(١) عاصمةً لهم، فكان منهم أُوسَرْكُونُ الأولُ وشَاشَانْقُ الثانى وأُوسَرْكُونُ الثانى الذى ما إن قَارَبَ حكْمُهُ على الانتهاءِ، حتى قامَ بِدِى بَاسْتَ حاكمُ إحدى مقاطعاتِ الجنوبِ بالخروجِ على حكومةِ بَسِتْ وتأسيسِ أسرةٍ حاكمةٍ جديدةٍ فى طيبةَ هى الأسرةُ الثالثةُ والعشرون، ومع تقسيمِ البلادِ من جديدٍ إلى مملكتينِ منفصلتينِ راح حكامُ المقاطعاتِ يجتهدون فى فصلِ مقاطعاتِهِمْ عن

(١) تل بسطا – بمحافظة الشرقية.



سيطرةِ ملوكِ الأسرةِ الثانيةِ والعشرين فى الشمالِ وملوكِ الأسرةِ الثالثةِ والعشرين فى الجنوبِ، حتى أصبحنا اليومَ وقد تناثَرَتْ وَحْدَةُ البلادِ وصارت مقاطعاتُهَا مَمَالِكَ مستقلةً.

فقلتُ له: وبهذا التقسيمِ وتلك الفوضَى بلغَ تدهورُ صُوَرِ الحياةِ على أرضِ الفراعنةِ حَدّاً جعلَكَ تبتعدُ عن كُلِّ مايدورُ لتجلسَ وحيداً هنا.

فنهضَ واقفًا، وأخذ يسيرُ بين

أعمدةِ الكرنكِ، ينظرُ إلى تيجانِهَا العاليةِ ويتـأمَّلُ ما قد نُقِشَ على أحجارِهَا الضخمةِ من مفاخرِ ملوكِ الفراعنةِ قائلاً: على قَدْرِ مَاكَانَ تأسيسُ الإمبراطوريةِ الفرعونيةِ وصُعُودُهَا إلى أرْقَى درجاتِ التحضُّرِ بالأمسِ عملا فَذًّا يكونُ سُقُوطُهَا اليومَ إعلانًا مُدَوِّيًا عن فَشَلٍ عظيمٍ.

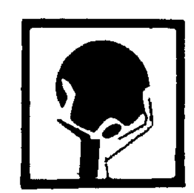
ولم أستَطِعِ التعقيبَ على كلماتِ «نيلٍ»، فقد أسرعتُ بالفرارِ أُهَرْوِلُ مبتعدًا عن شاطىءِ النهرِ، بعدما علت الصرخاتُ تُحذِّرُ من فيضانِ النهرِ الذى راح يبتلعُ كُلَّ مايَقِفُ فى طَرِيقِهِ وكأنه يعلنُ عن رَفْضِهِ لما يجرى على طولِ واديه ودلتاه.





أسمى «تاريخ»، وجدت منذ أن وجد الإنسان على سطح الأرض، معه عشت خطواته الأولى، وبين تجمعاته سعيت متنقلا من بلد إلى آخر، وطنى حيث يجد الإنسان فى العمل والإبتكار، لأراقب مسيرة أعماله، أحصى أخباره، وأدون إنجازاته يوما من بعد آخر وعاما تلو عام، تعددت زيارتى إلى كل أقطار العالم فكان لبلادكم نصيب وافر من هذه الزيارات، فيها شاهدت قيام أول حضارات الإنسان على أرضه، ولها سجلت الكثير من صفحات البطولات، وسجلات الإنجازات والرقى، واليوم وبعد كل هذه الأعوام الطوال أجلس بينكم لأحدثكم حديث مصر عبر الزمان نسترجع سويا أحداث رحلاتى إلى أرض النهر والأهرامات والحضارة.

حقوق التوزيع فى مصر والعالم محفوظة



المكتب العربى للمعارف

١٠ شارع الفريق محمد رشاد - خلف عمر أفندى

ميدان الحجاز - مصر الجديدة - القاهرة

ت : ٢٤٢١٥٢٦

الناشر



م. الوحدة الوطنية العربية



فجر الحضارة	مصر وآشور
مصر الدولة	مصر وفارس
بناة الأهرامات	مصر البطلمية
غروب شمس الأهرامات	ميلاد الإسكندرية
العصر الذهبي	انهيار دولة البطالمة
انتصار طيبة	بين روما والإسكندرية
تأسيس الإمبراطورية	مصر الرومانية
عصر التوحيد	مصر القبطية
الرعامسة	مصر البيزنطية
سقوط دولة الفراعنة	مصر الإسلامية

